٦- الدولة التدمرية

نشأت تدمر في الظروف نفسها التي نشأت فيها دولة الأنباط بصفتها محطة تجارية في واحة تقع في طرف البادية ، التي تفصل الشام عن العراق ، وتحيط بها مناطق صحراوية ، وهي تقع إلى الشرق من مدينة حمص على بعد لا يتجاوز ١٦٥ كيلو متر عنها. وكان الموقع المدينة على طرق القوافل التي تسير بين بلاد الشام والعراق ، ولوجود آبار المياه العذبة والحلوة ومجاري المياه المعدنية فيها فضل كبير على نشوئها وارتقائها من محطة للقوافل إلى مدينة عامرة ، بعد أن استقرت فيها بضع قبائل عربية لم يتأكد بعد المكان الذي أتت منه ، إنما يعتقد بعض المؤرخين المحدثين أنها أخذت تسكن شرقي إقليم كنعان بعد سقوط الدولة البابلية ، وبدأت تتعلم التكلم والكتابة باللغة الآرامية) . كما أثرت في نشوئها عوامل سياسية ، ذلك أنها كانت تقع بين أمبراطوريتين كبيرتين : البارثية والرومانية المتعاديتين ، فحافظت على توازنها واستقلالها بينها زمنا طويلا ، مستغلة موقعها المنعزل في قلب الصحراء ، وصعوبة وصول الفرق الفارسية والرومانية إليها الإخضاعها)، وحرص كل من الطرفين على استقالتها لجانبه

على أن أهميتها وازدهارها كانا بين مد وجزر تبعا لميزان العلاقة بين حكام العراق وفارس من آشوريين وبارثيين وساسانيين من جهة ، وبين حكام سورية من سلوقيين ورومان من جهة أخرى إذ كانت تتقدم وتزدهر عندما تتمكن إحدى هذه الدول من السيطرة على المنطقة برمتها من البحر المتوسط إلى العراق ، وتصبح تدمر عقدة المواصلات بين الشرق والغرب ، فتنتعش انتعاشة كبيرة ، لكنها تتأخر عندما تسوء العلاقات بين حكام المنطقتين فتقوم الحروب وتفقد ميزتها كوسيط تجاري بين الجهتين فيتحول النشاط التجاري إلى شواطئ البحر الأحمر قد انصب نشاط التدمريين على خدمة القوافل ، يتولون قيادتها والإشراف على صيانة آبار الماء على الطرق التي تسلكها . كما أن تعرض القوافل أحيانا للاعتداء والنهب من قبل قطاع الطرق واللصوص قد دفعهم إلى تأمين سلامتها من هذه الأخطار ، وهكذا فإننا نجد في النقوش التدمرية القديمة ترديدة لذكر (رئيس الخفر) الذي تسير القوافل في ظل سطوته ، وقد بلغ من النفوذ مايخوله أن يفعل ما يشاء ولا يلقى معارضة، وكان إلى جانبه موظف آخر يسمي (رئيس السوق)

إن تاريخ تدمر خلال الألفين الثانية والأولى قبل الميلاد غامض ، غير أن أقدم ذكرها باسمها المعروف الآن (تدمر)، قد ورد في نقشين كتابيين أولها يعود إلى عام

١٨٠٠ ق.م، والثاني إلى عهد الملك الآشوري (تغلات فلاسر الأول عام ١١٠٠ ق.م
ويختلف الباحثون حول منشأ هذا الاسم ويفرضون بعض الاحتمالات منها أن لفظ
الذي عرفها به اليونان والرومان يعني النخيل في اللغة اللاتينية ، فهي على
هذا الاعتبار (مدينة النخيل) ، وكلمة (تدمر) تقابل في العبرانية كلمة (تامار) التي
تعني التمر ، وهو الأمر الذي حدا بأحد المؤرخين العبرانيين إلى الخلط بين (تدمر) وبين
بلدة يهودية أخرى تسمى (تامار) في جنوب البحر الميت . فروى أن سلمان الحكيم هو
الذي بناها ، فانساق بعض المؤرخين المسلمين وراء هذا الخلط فرددوا أسطورة كون المدينة
قد بنيت من قبل الجن بأمر من سليان) ، لاعتقاده بأن ماتشتمل عليه من روائع عمرانية
هي فوق طاقة الإنسان؟) . أما الساميون والكتاب الكلاسيكيون فقد عرفوها منذ أقدم
العصور باسم (تادا مورا)

وإذا رجعنا إلى أخبار تدمر نرى أن أقدمها لا يعود إلى أبعد من القرن ٩ ق.م. وقد كشف العلماء عن نقوش مكتوبة بالآرامية واليونانية ثم باللاتينية والآرامية ، وهي وبعض الكتب الكلاسيكية القديمة تعطينا فكرة نوعا ما واضحة عن تاريخها ، ويستدل منها أن عوامل عديدة قد تضافرت على نشوئها . وأهم هذه العوامل كون الفرس قد سيطروا على آسيا الغربية بأكملها بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد ، الأمر الذي أعان على توسع النشاط التجاري بين الشرق الأقصى وسورية وتركيا عبر العراق ، وكانت تدمر المحطة الرئيسية ، إذ كانت بمثابة العقدة المتوسطة في العمود الفقري لهذه المواصلات . وقد احتفظت بمكانتها حتى عهد السلوقيين الذين وجدوا بدورهم سورية والعراق وشجعوا طريق التجارة بينها مرورا بتدمر ، لينافسوا بذلك غرماءهم البطالة في مصر الذين كانوا يحرصون على ازدهار الطريق التجاري الذي يمر بالبحر الأحمر ، فاستفادت تدمر استفادة عظية من هذه السياسة وانتعشت ، بالرغم من أنها وقعت تحت نفوذهم على الأغلب ، وبقيت كذلك حتى استيلاء الرومان على الشرق الأدني .. غير أن تاريخ خضوعها للرومان لا يمكن تحديده على وجه الدقة ، ويظهر أن ازدهارها وغناها قد أغرام ، فاستهدفت لحملة رومانية بقيادة (مرقس أنطونيوس) الذي كان عائدا من حرب شنها على الفرس في الشرق ، فأرسل سنة ٤١ ق.م إلى أهل تدمر ينبئهم بأنه سير بمدينتهم للاستراحة ، بينما كان يضر الاستيلاء عليها . ففطنوا إلى المكيدة ، وأخلوا مدينتهم من كل ما تحوي من أموال ومتاع ثمين ، واستعدوا لقتاله وأحبطوا حملته ، ولكن بعد أن أحدث بعض التخريب فيها) . لكنها ربما تكون قد خضعت للرومان في الربع الأخير من القرن الأول للبلاد بعد أن أخضع الرومان بلاد الشام لسيطرتهم وسيادتهم . وإذا استثنينا بعض الأحوال التي لجأ فيها الرومان إلى سياسة القسر والإخضاع ، فإن العلاقات الودية قد ظلت سائدة بين روما المدة طويلة . ففي سنة ١٣٠ م زارها الأمبراطور (هدريان) - وهو الذي بدأ عهده بعلاقات سلمية مع البارثيين . ولقبها بلقب (هادريانا بالميرا) ومنحها درجة (مستعمرة

رومانية عليا) ، فنال التدمريون حقوق الإيطاليين في الملكية المطلقة ، وأعفيت تجارتى من الضرائب ، ومنحت لهم حريتهم التامة في إدارة سياستهم . وهكذا انتعشت تدمر اقتصادية كما انتعشت سياسية ، ذلك أنها لم تخضع لروما إلا خضوعة اسمية وشكلية ، إذ كانت في الواقع مستقلة في أمورها الداخلية ، واحترم (هادريان) هذا الاستقلال الذي قامت على توطيد أركانه سلطة تنفيذية يرأسها شيخان وبجانبها ديوان مؤلف من عشرة أعضاء ، بالإضافة إلى مجلس شيوخ يتمتع بحق إصدار القوانين وتقرير الضرائب ، فازدهرت واتسعت تجارتها وتضخمت ثروتها ونشط عمرانها ، وعاشت بين سنة ١٣٠ - ١٧٠ م أزهر

أيامها) . وما زاد في أهمية تدمر السياسية أن تطورات هامة قد حدثت في مملكة الفرس ففي القرن الثالث الميلادي اغتصبت الأسرة الساسانية العرش من الأسرة البارثية ، واتبعت سياسة العنف مع جيرانها ، فتجددت الحروب بينها وبين الرومان . وكان الحكم آنئذ لأسرة وطنية عريقة يقوم على رأسها زعيم يسمى (أذينة بن خيران) الذي وصل إلى منصب عضو في مجلس الشيوخ الروماني وحمل لقب (ستيم) ، فأحسنت هذه الأسرة الاستفادة من هذه الحروب والحصول على مركز مرموق عند الرومان . كما استغلت المشاكل الداخلية المختلفة التي كانت تحيط بالأمبراطورية ، إذ تعرضت لغزوات الجرمن البرابرة التي كانت تهددها من الشمال ، فأهملت شؤون الشرق ، فانصرف اهتمام حكام تدمر إلى تكوين جيش من المليشيا مؤلف من القبائل الموالية لهم ، ومن العناصر التدمرية المسرحية من الجيش الروماني ، أو التي اضطرتها حالة الفوضى إلى ترك الخدمة العسكرية ، أو فرت من المعارك الناشية بين الفرس والروم . واعتني حكامها بتسليح وتقوية جيشهم حتى أصبح في المستوى الذي يسمح لهم بأن يقوموا بدور سياسي وعسكري هام في سياسة الشرق ، وقد اضطلع به زعيم الأسرة أذينة الأول الذي نسبه الطبري إلى العرب العمالقة ، قائلا أنه أذينة بن السميدع بن هوبر العملقي . فقد تقرب من القياصرة وأظهر لهم من التأييد ماأكسبه ودهم وعطفهم على أسرته ، فمنحوه الألقاب والأوسمة والمال ، كما أرضوا طموحه بمنحه درجة العضوية في مجلس الشيوخ الروماني وكان لقبه الرسمي (رأس تدمر) . غير أن طموحه لم يقف عند حد فأطلق على نفسه لقب (ملك) . عندئذ أدرك الأمبراطور (اسكندر سيفيروس مايكمن وراء هذا التصرف من مخاطر تهدد الأمبراطورية في الشرق ، بالإضافة لما أصبح لأسرته ولتدمر من نفوذ يوحي بطموحها للاستقلال التام عن روما ، فأوعز إلى أحد أعوانه بتدبير خطة لقتله ، فاعتلى ابنه الأكبر سبتيوس خيران الحكم ، لكن المنية سرعان ما أدركته ولم يزل ابنه معن صغير السن قاصرة ، فتولى الحكم عمه . (أذينة الثاني) بن (أذينة الأول) . في هذه الفترة وقعت الحرب بين الرومان والفرس ، وتقدم الملك (سابور) الفارسي نحو الغرب ، فاجتاح ولاية أنطاكية ، وأحرز الغلبة على الأمبراطور (فاليريان) وتكن من أسره (٢٩٠ م) . ويظهر أن (أذينة الثاني) قد اغتنم هذه الفرصة للانتقام لوالده ، لاسيما وأن فاليريان كان قبل أسره قد رفض طلباً قدمه إليه أذينة بوجوب إنزال العقاب يقاتل والده ، فأرسل إلى (سابور) رسلا للتفاوض معه في سبيل العمل المشترك ضد الرومان في بلاد الشام ، فلم يكن من الملك الفارسي إلا أن استخف بالرسل وين أرسلهم وأهانهم . عندئذ تحول (أذينة) إلى الرومان الذين بادروا إلى الاستنجاد به فخف . لمساعدتهم ، وحارب الفرس ليرد الإهانة التي وجهوها إليه وانتصر عليهم وتعقب ملكهم سابور حتى أبواب عاصمته طيسفون (المدائن) ، وألحق بمملكته خسائر فادحة ، فأنعمت عليه روما بلقب قائد عام على جميع جيوش الشرق وفي هذه الحملة كادت العاصمة الفارسية أن تسقط في يديه ، لولا أن بلغه خبر ثورة قام بها أحد قادة الرومان لاقتطاع أسيا الصغرى وسورية ومصر ، فخف القمع الثورة وقضى على القائمين بها ، فأضافت إليه الدولة لقبة جديدة (أمبراطور على جميع أنحاء الشرق) مكافأة له على أعماله في نصرتها . لكن (أذينة) لم يكتف بهذه الألقاب بل اتخذ لنفسه لقب (ملك الملوك) ، وضرب النقود باسمه . فهل يستدل من تصرفه هذا أنه لم مركزه ، ونفوذ أسرته ودولته تمهيدا لتحقيق يقم بمساعدة الرومان إلا في سبيل تقوية مرامية السياسية ؟ هذا هو الذي يغلب على الظن لأول وهلة ، لكن فقدان الأدلة والأحداث التالية تقلل من هذا الظن . حكم زنوبيا : كانت زنوبيا عربية الأصل ، ذات شخصية قوية ، تتحلى بتربية عالية ، تجيد اليونانية والأرامية ، وتتكلم بها مثل الطلاقة التي تتكلم بها العربية ، ولم تكن تجهل اللاتينية ، ولها اطلاع على تاريخ الغرب بالإضافة إلى كونها قد دونت لنفسها خلاصة التاريخ الشرق ، مما يدل على سعة اطلاعها عليه ، وألفت أن تعقد الموازنة بين روائع (هوميروس وأفلاطون) تحت إشراف فيلسوف بلاطها العالم (لونجين) ، الأمر الذي يشهد باطلاعها أيضا على الفلسفة الأفلاطونية . يصفها أدوار جيبون بأنها كانت تتمتع بعبقرية فذة ، وأنها أوتيت من الصفات ، كا لجرأة والشجاعة ، ما رفعها إلى مرتبة البطولة.

المصادر :

١- هاشم يحيى الملاح, الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام.
٢- توفيق برو , تاريخ العرب القديم